الموسم

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

مجلة الموسم (العدد 17) – 1994 – 1414

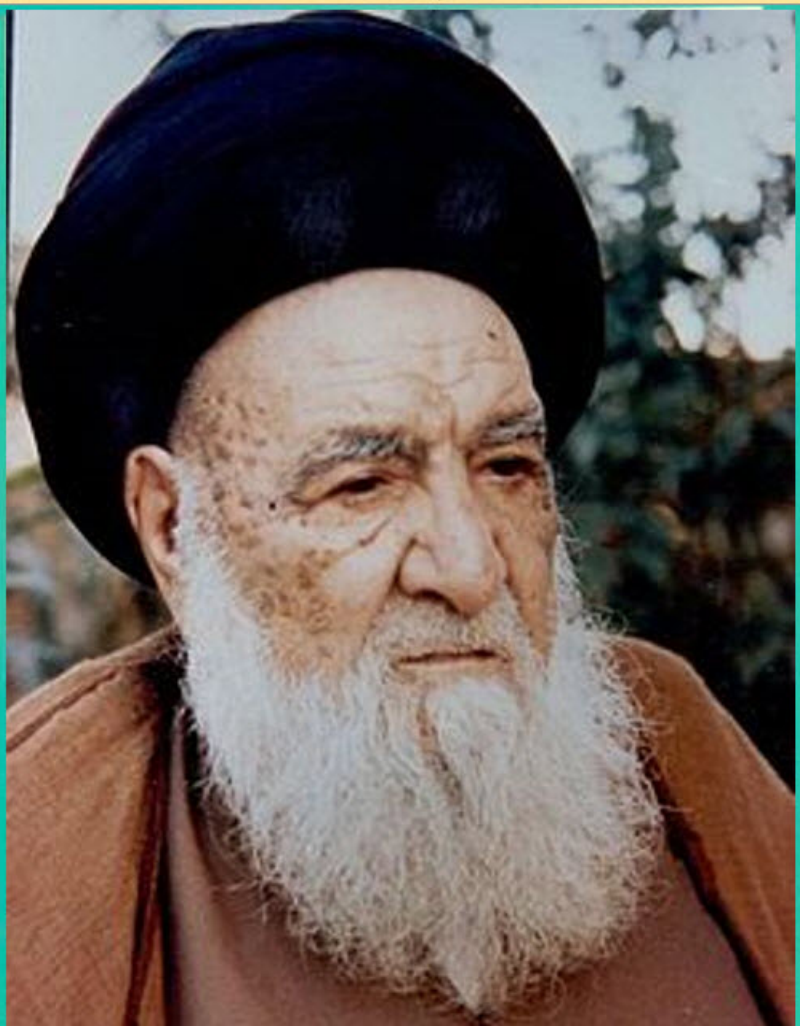

آرشيو مخطوطات
خزانة رخامي دار الحديث
٢١٢٣٠

الإصلاح

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

صاحبها ورئيس تحريرها

محمد سعيد الطريحي

Shiabooks.net

١٧

ترسل جميع المراسلات والطلبات باسم صاحب المجلة الى :

المركز الوثائقي لتراث اهل البيت عليهم السلام

اكاديمية الكوفة

«مؤسسة مسجلة في المملكة الهولندية»

KUFA ACADEMY
POST BUS 1113
3260 AC OUD - BEIJRLAND
[HOLLAND] - TEL, FAX: 01860 - 20712

الاشتراك السنوي ١٠٠ دولار امريكي

في مقدمة تفسيره

أسهم الامام الخوئي (قده) في التقريب بين شقي الامة

الدكتور جمال البنا

الحديث عن المرجع الديني الاعلى الامام ابي القاسم الخوئي(قده) يثير اللوعة والاسى، قدر ما يبعث على الاعجاب والتقدير، لسني النسب الاشرف، حيث مثوى امام الائمة يرقى الرسول (ص)، وهيم شيخ الطائفة الطوسي بذرة حوزتها من الف عام. وتتابع عليها العلماء جيلاً بعد جيل، عاش الامام الخوئي معلماً، وهادياً، يصدع بكلمة الحق، تحيط به من كل جانب مظاهر سطوة طاغوت من أسوأ طواغيت العصر، فلا يبالي، ولا يخشى في الحق لومة لائم، ولا تنال منه محاولات البطش، واثقاً في حماية الله وولاء الجماهير، رافضاً ان يهاجر الى ايران حيث الامن والسلام حتى لا يسمح للطاغية ان يمس الحوزة، فوقف موقف الائمة من آل البيت (ع) والائمة من اهل السنة..

فوقف موقف احمد بن حنبل يوم المحنة والطوسي الذي تمسك بالنجف. وبهذا حمى الحوزة من ان تذهب بريا محاولات الطاغوت وعندما جاءه الأجل وآثره الله بان يكون مع النبيين والصدّيقين والشهداء والائمة من آل البيت (ع) كشف الطاغوت عن حقده، واظهر جبنه منه ميتاً، كما كان يخشاه حياً. فانزل القوات المسلحة لتحيط بالنجف وضواحيها، وقطع الاتصالات الهاتفية عن مكاتب الفقيد العظيم، ومنع الالوف المؤلفة من مريديه واتباعه ان يودعوه وأصرّ على ان يدفن ليلاً في جنازة لم يسمع فيها الا بضعة من الناس.

وماذا يضير الامام الخوئي (قده) من هذا؟ وقد حدث للامام الاعظم علي بن ابي طالب (ع) نفسه، ومع زيد بن الامام علي زين العابدين (ع)؟ وقد سبقه تلميذه النابغ السيد محمد باقر الصدر. كما سبقه في التاريخ الحديث جمال الدين الافغاني وحسن البنا.

قلت ان الحديث عن الامام الخوئي يثير اللوعة والأسى لانه اعاد الى ذهني مشهد جنازة الشهيد حسن البنا الذي اغتالته في ظلام الليل رصاصات غادرة، بعد ان جرد من سلاحه، وقطع تليفونه، واعتقل اشقاؤه ولم يبق ببيته الا النساء والصبيان والوالد المسن. فحملت نعشه النساء وشرجت جنازته بثلاثة اشخاص احدهم ابوه، وهو الزعيم الذي كان ملأ الصباح والمساء بشهيه ويتبعه مئات الالوف.

١- في حياة الامام الخوئي (قده) وعمله سلطان متوازيان سار عليهما طوال حياته، وكأنما هما القضيبان اللذان يسير عليهما القطار ليصل الى غايته.

الخط الاول الايمان بالعلم والمعرفة والعمل -بصورة منهجية ومنظمة، والعمل لإشاعتها بين الناس، فجعل رسالته النهضة بالحوزات وتعميق وتوسيع نشاطها، وكأنه هو المقصود ببيت شوقي:

يا ناشر العلم بهذي البلاد
حبّيت، نشر العلم مثل الجهاد

او بيته الآخر:

فعلّم ما استطعت لعل جيلاً
سياتي يحدث العجب العجابا

واي جهاد في الحقيقة افضل من العلم، وهو مفتاح كل عمل رشيد.. فاذا اذكر الامام الخوئي، ذكرت المدارس والحوزات، وتوارى سجل طويل مما امر بتأسيسه في مختلف دول العالم، مثل مدرسة دار العلم في بانكوك (تايلاند) ومدرسة صاحب الزمان في كهولنا (بنغلادش) ومدرسة اهل البيت في هوكلي (البنغال الغربية) ومدرسة امير المؤمنين في الهند ومدرسة الامام الباقر عليه السلام في بهيوندي (الهند) والمدرسة الايمانية في بنارس بالهند والحوزة العلمية في حيدر آباد. ووضع أساس مدينة متكاملة للطلاب ولمدرسي الحوزة العلمية في قم المقدسة وهي اليوم مدينة شامخة باسم «مدينة العلم».

وتقوم المؤسسات الخيرية الثلاث التي تحمل اسمه في بريطانيا وفي الولايات المتحدة وفي الهند بتأسيس المدارس والمعاهد وتقديم الخدمات الثقافية..

لقد قضى الامام الخوئي(قده) عمره المديد في خدمة العلم والمعرفة، وتأسيس الحوزات، فحقق في هذا ما لم يتحقق لغيره واصبح جديراً بحق باللقب الذي يقترن به اسمه «زعيم الحوزة الدينية».

ان اسلوب الامام الخوئي في التدريس كان مختلفاً كل الاختلاف عن الاسلوب التقليدي في المعاهد الدينية (بما في ذلك الازهر) حيث يلقن الطالب النص ويطالب بحفظه. وقد يشرحه الشيخ شرحاً يزيد النص تعقيداً وعسراً. وهي تظهر ان الامام الخوئي(قده) قد اهتدى بذكائه، وفطرته السليمة الى افضل اساليب التدريس التي تقوم على اشراك الطالب بحيث لا يكون طريقا واحداً. وهو ما يؤتي افضل ثماره بالطريقة السقراطية التي كان الامام يتبعها.

كان الامام الخوئي(قده) يرعى كل الحوزات العلمية في العالم بالرواتب والمساعدات حتى يتفرغ الاساتذة وطلاب العلوم الدينية لعلمهم الفقهي وخدماتهم الدينية الجليلة، فحوزة النجف الاشرف، وحوزة كربلاء المقدسة في العراق وحوزات قم ومشهد واصفهان وتبريز وغيرها في ايران والحوزات والمعاهد الدينية في الهند وباكستان وتايلند وحتى في اوربا من الشواهد الحية على ذلك. ان شمول الرعاية هذا يعتبر من مختصات مرجعية الامام الراحل.

وهكذا كان الامام الخوئي (قده) اول مرجع اهتم بالعمل المؤسساتي، تشييداً ودعماً. فقد امر بانشاء "مؤسسة الامام الخوئي الخيرية"، وهي ذات طبيعة عالمية حيث قامت في غضون عمرها القصير بمشاريع دينية وثقافية واجتماعية ضخمة ممتازة في شتى بقاع المعمورة (مجلة النور العدد ١٦ ربيع الاول ١٤١٣ ص ٢٥ ـ المرجعية المتميزة للامام الخوئي).

وهذه الاشارة الخيرة ـ العمل المؤسساتي ـ هما في حقيقة الحال النهاية الطبيعية للخط الاول في حياة وعمل الامام الخوئي (قده). خط الثقافة والمعرفة، وعليها يتوقف إحياء ذكراه، وابقاء دعواه. واذا كان الامام الخوئي قد اقتصر في تدريسه على الجوانب الدينية في دعوة المسلمين الشيعة ولم

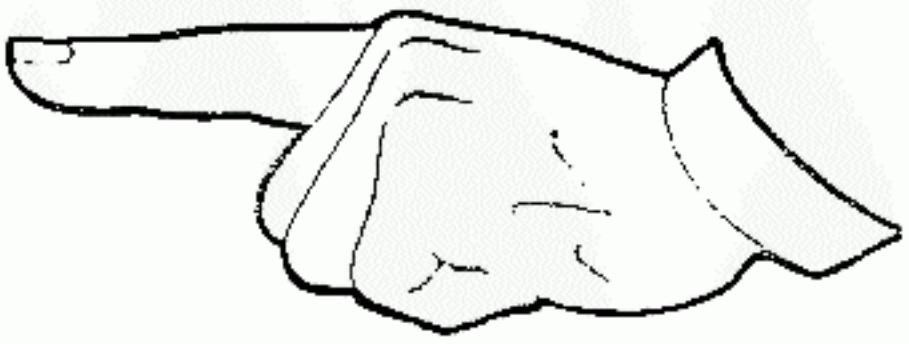

يتطرق الى غيرها من الثقافات، كان ذلك انما يعود الى انه كان يهدف الى ابقاء جذوة الفكر الشيعي منيرة متوهجة في مواجهة الطاغية المستبد الذي يريد اطفاءها.

ولكن مؤسسات الثوني قد انطلقت من عقالها، ولم يعد للمستبد سيطرة عليها، ولم تعد قائمة في النجف او كربلاء فقط، بل وفي لندن، ونيويورك وبومباي ايضاً، حيث توجد مجموعات عديدة من اعداء الاسلام، وحيث يأخذ الصراع طابعاً حضارياً تقنياً. ومن هنا فلا بد للمشاريع الاسلامية الخومينية ان تسير مع العصر حتى تستطيع مجابهة تحدياته. ومن صور ذلك ان تُعنى بفنون اخرى من الثقافة بالاضافة الى المعرفة الاسلامية الشيعية- كاللغات التي تحس الحاجة الشديدة والملحة الى الذين يحكمونها فيعرفون العالم بعقيدة الاسلام ويفندون دعاوى خصومه، وينقلون الى شعوبنا ثمار الحضارات الحديثة، التي يجب ان تكون ايضاً موضوعاً لدراسات خاصة، لاننا -رغمنا او ابينا- نعيش في «عصر الغابة الاوربية» ولا يخرج في نظري عن اطار مسئوليات هذه المؤسسات ان تعنى بصور من المهارات التقنية (الكومبيوتر- اللاسلكي، الخ..) سواء جاءت هذه العناية بصورة مباشرة او غير مباشرة.

فالعصر الحديث سيجعل من هذه المهارات حلبة الصراع وسيكون النصر لمن يحكمها، وهذا كله ليس بعيداً عن اهتمامات أي مؤسسة ثقافية. فان مذهب الشيعة ليست ديناً ولا جنسية، ولكنها مذهب من مذاهب الاسلام، فهي من الاسلام والى الاسلام. وكل ما ينهض بالاسلام ينهض بها، وكل ما يهوي بالاسلام يهوي بها.

نعم، ان العمل الاجتماعي، وتفريج الكربات ومساعدة المحتاجين يدخل في اختصاص هذه المؤسسات باعتبارها مؤسسات خيرية. ولكن علينا ان نعلم ان المساعدة المادة للمستقل هي ان نعلمه، اكثر مما ان نعطيه مالاً، وبتعبير آخر ان نعلمه الصيد، لا ان نعطيه سمكة، فالسمكة ان تمتلئ، ولكن السنة القوم تعلمها بتعليم أوده، ومن هنا يتلاقى تفريج الكربات مع إشاعة المعرفة والمهارات.

٢- والقطب الثاني، البارز والمتميز في حياة وعمل الامام الخومخر (قده) هو تصديه لمهمة متقدمة في عرض القرآن الكريم عرضاً رشيداً، مثقفاً يبرز من اللوثات التي تعلق بها كتب التفسير عند اهل السنة او الدعاوي المسرفة التي

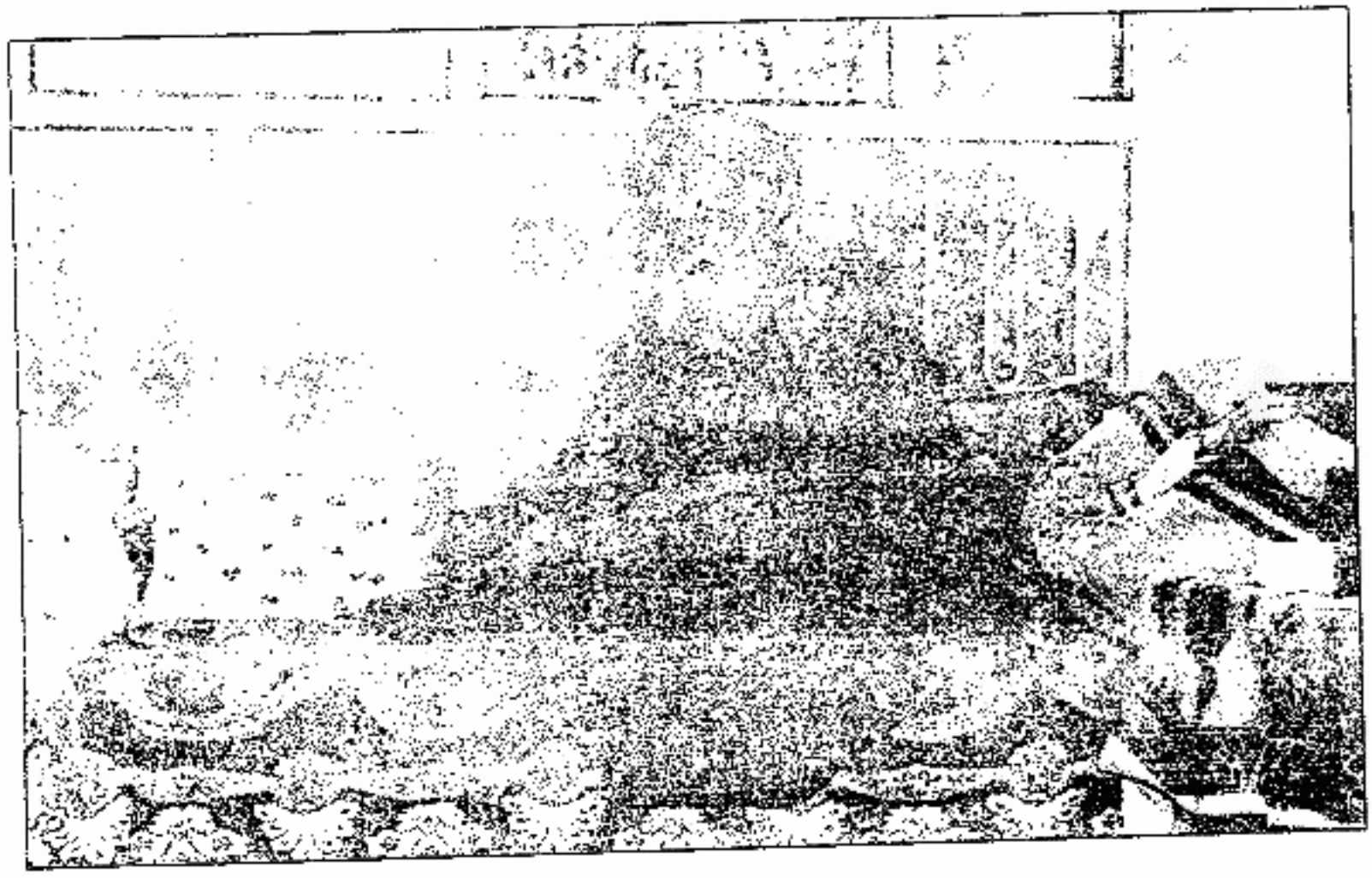

دسها البعض في الفكر الشيعي بحيث ابعدت اهل السنة.. عن الشيعة واعطتهم انطباعاً سيئاً. وعمل الامام الخوئي في هذا المجال كان مزدوجاً.

فهو من ناحية قدم تفسيراً موضوعياً لا يرفضه الا المتحيز، وهو من ناحية اخرى قدم للسنة تفسيراً لا يختلف عن مألوف تفسيرهم، بل يتميز جملة بخلوه من الاسرائيليات والاحاديث الركيكة التي لم يخلص منها اي تفسير بما في ذلك الطبري، وابن كثير والزمخشري والرازي الخ...

والقرآن هو اصل الاسلام فاذا كان فهم الشيعة له، هو فهم السنة، كان هذا هو اول خطوة على طريق التقريب بين شقي امة محمد.

وقد اوضح الكثير من أئمة الشيعة وفقهائها -قدامى ومحدثين- ان ما سبق الى ظن اهل السنة من وجود مصحف خاص بالشيعة -قد يطلق عليه مصحف فاطمة، او مصحف علي فيه اضعاف ما في المصحف الذي بين يدي اهل السنة- انما يعود الى مزاعم لا اصل لها، دسها اعداء الشيعة، وما كان اكثر اعدائها، وكتبت هذه المجموعة الرشيدة من علماء الشيعة كتابات عديدة في هذا المجال، ولكن هذه الكتابات وان هيأت الصدور وفتحت القلوب، فانها لم تجهز على بقايا شكوك. وما كان يمكن ان يجتمع شمل الامة، ما لم يتم هذا الاجهاز، لا بمجرد نفي الشكوك والادعاءات، ولكن بتقديم نموذج للتفسير الشيعي بالفعل، وهذا هو ما فعله الامام الخوئي بتأليف كتاب «البيان في تفسير القرآن» الذي هو موضوع هذا الحديث.

ان البيان يشغل منزلة فريدة ما كان يمكن ان يشغلها لو كان في عشرين جزءاً او لو سلك فيه مؤلفه مسلكاً اكاديمياً خالصاً، فهو للقرآن مثل «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» لابن رشد في الفقه، او كمقدمة ابن خلدون في التاريخ والاجتماع بمعنى انه ضم ابرز ما يثيره القرآن من قضايا بصورة سائغة، سهلة، برئت من الاوهام العريقة، ثم قدم كمثال عملي للتفسير تفسير سورة الفاتحة، وهو تفسير يعيد الى الذهن تفسير سورة الفاتحة للامام محمد عبده وتفسير سورة الفاتحة للامام حسن البنا.

والملاحظة التي تلفت الانتباه ان الامام الخوئي(قده) رجع في كتابه الى مراجع معتمدة من اهل السنة اكثر مما رجع الى مراجع شيعية، بل هناك فصول لم ترد فيها اشارة الى مرجع شيعي، كالفصل الخاص بالقراءات التي اقتصر فيها المؤلف على مراجع سنية مثل تفسير الطبري، وابن كثير، والاتقان

"وقد اعتمد الامام الخوئي على مراجع اهل السنة، اكثر مما اعتمد على مراجع الشيعة، دون ان ينزلق الى ما انزلقت فيه تفاسير اهل السنة من حشو واسرائيليات".

للسيوطي، ومنتخب كنز العمال، وصحيح مسلم والبخاري ومسند احمد والنشر في القراءات العشر لابن الجوزي.

وتفسير القرآن بالقرآن الذي اتبعه الامام الخوئي هو اسلم انواع التفسير لانه يبعد عن الرأي، وتنتفي معه الاساطير والروايات، ولهذا فلم يقل كما قالت بعض التفاسير عن «المغضوب عليهم والضالين» انهم اليهود والنصارى ولم يحاول ان يحمل الآية على غير ما يحمله ظاهر كلماتها.

ومع ان الامام الخوئي (قده) تعرض في تفسيره الفاتحة لبعض النقاط الشائكة والحساسة، كقضية الشفاعة والسجود على تربة كربلاء، فان الطريقة الموضوعية والبعيدة عن السرف، لم تجعل القارئ السني يستشعر غضاضة او غرابة، والحقيقة ان هذا التفسير أدنى الى السلامة والسداد من كثير من التفسيرات المعتمدة لدى اهل السنة، والتي حشيت بالمنقول التي لا أصل لها.

ان تفسير الفاتحة الذي تضمنه كتاب «البيان» للامام الخوئي هو اضافة منشئة، ومبدعة في هذا المجال ترضع على قدم المساواة مع تفسير الفاتحة للامامين محمد عبده وحسن البنا.

ولما كان من تأليف المرجع الاعلى والحجة المفلس في الفكر الشيعي فانه تقدم الى السنة شوطاً وسيعاً لتقديم الشيعي وأسهم في التقريب بين شقي الامة.

اما ما جاء في البيان من معالجات، فانها ايضاً تعد اضافة اصيلة الى الفكر الاسلامي، ودفعة له للتخلص من إسار التقليد. وقد برأ ساحة الشيعة من المفتريات عليها التي كانت تبعد عنهم اخوانهم من اهل السنة كما نبه اهل السنة الى خطر مزاعم النسخ -خاصة نسخ التلاوة- التي حشيت بها كتب التفسير، ومساسها بقداسة الكتاب المنزل المحفوظ بعناية الله، وما يمكن ان تدسه في الاذهان من شبهات التحريف.

باختصار، فانه يعرض لنا صورة لما يجب ان يكون عليه التفسير من ناحية الموضوعية، وعدم التأثر مسبقاً بمذهبيات او التعصب لآراء تراثية، والاخذ بظاهر الآيات وسياقها والاهتداء الى معاني الكلمات من الآيات القرآنية المتعددة التي تأتي فيها هذه الكلمات وكلمته التي قدم بها التفسير «اني لا اصيد في تفسيري هذا عن ظواهر الكتاب ومحكماته، تسلح نبراساً لكل مفسر لان تفسير القرآن من القرآن نفسه هو -وحده- الذي يعصم المفسر من اكبر خطرين، الا وهما التفسير بالرأي او الانزلاق وراء المنقول، ويغلب لبيذين ان يضلا المفسر عما اراده الله تعالى او يحولا بينه وبين الوصول الى روح القرآن الكريم.